الإبداع الفني في الحكم

ابن عطاء الله (السكندري)

بقلم الدكتور
أحمد حسن عطوه الغندور
مدرس الأدب والنقد بكلية الدراسات
الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

الإبداع الفنى
فى حكم ابن عطاء الله (السكندرى)

بقـــلم دكتور
أحمد حسن عطوة الغندور
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

الحكمة لون جميل من ألوان الأدب يؤثر فى النفس ، ويزيدها معرفة واستنباطاً لأسرار الحياة . وأكثرها يقوم على قوة فى تركيز مشاعر الناس وإحساساتهم حتى تتبلور فى صيغ قصيرة لتؤثر فى السامعين تأثيرا قوياً حتى يحسبوها من الحقائق المقررة والقوانين الاجتماعية الثابتة . (١) .

والأديب الحكيم هو ذلك الإنسان الذى منحه الله فكراً دقيقاً نافذاً ، ورؤية واسعة لجوانب الحياة ، وقدرة فنية رائعة تستطيع أن تلبس هذه المعانى ثوباً فنيا مؤثراً من أهم خصائصه الإيجاز الذى يعطيك لفظاً موجزاً ومعنى يفيض سعة وإيحاء .

---

(١) الشعر العربى والذوق المعاصر ـ د/ محمد كامل حسين ـ القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص ١٣١ .

وقد نجد من يساوى الأديب فى عمق النظرة وسعة الرؤية بيد أنه إذا رغب فى التعبير عن معانيه وأفكاره لجأ إلى أساليب أهل الفلسفة والمنطق من التحليل والسرد والاستدلال بما يملأ صفحات متعددة قد تكون لفكرة واحدة ، وهذه الفكرة يتناولها الأديب بأسلوبه الأدبى فى عبارات قصيرة هى فى تأثيرها ودلالاتها تفوق تلك الصفحات التى استوعبت فكرة الفيلسوف وصاحب المنطق .

والدليل على ذلك أننا نجد ما وصل إلينا من حكم العصر بين الجاهلى والإسلامى ما تزال غضة طرية يحتفى بها الناس — على اختلاف حظهم من الثقافة — يقول الأستاذ أحمد أمين « والذوق العربى العام يأنس بالحكم ، ويهتز لها من حين شغف الناس بقصيدة زهير إلى وقتنا هذا » (١) .

ولو أننا أخذنا هذه الحكم التى تستهوى الأذواق ويرددها الناس وعرضناها — بأسلوب فلسفى لوجدنا من الأذواق إعراضاً ونفوراً — اللهم إلا من أوتى حظاً من الثقافة يعينه على التأمل والتدبر ، والسر فى ذلك أن الأسلوب الأدبى الرابع الذى تتزى به الحكمة ، وهذا التركيز القوى الذى يلقى إلينا ما اتسع من المعانى فى عبارات قصيرة موجزة ، يجعل النفس أكثر تعلقاً بالحكمة وتأثراً بها وحفظاً لها — وتناقلها حين تستدعى المناسبة ذكرها .

وإذا أردنا معرفة قدرة الأديب ومكانته بين الحكماء من الأدباء فلننظر إلى رصيده من الحكم — كم وسعت من حقائق الكون وأسرار الحياة ، وهل حكمه من هذا الطراز المحدود من الناحية الفكرية والذى يعتد بالقشور أم هى حكم تتعمق بواطن الأشياء ولا تقنع بالظواهر والمفاهيم المحدودة ؟ هذا بالنسبة للمعانى والأفكار .

---

(١) فيض الخاطر — أحمد أمين — القاهرة بدون تاريخ — مكتبة النهضة المصرية طأولى جـ ٨ ص ٢٢٦ .

أما بالنسبة للتعبير والصياغة - فهذا هو الميدان الذى تتسابق فيه مواهب الحكماء - إذ الحكمة قد تصاغ فى زى من التعبير ردىء ، لا تحس فى ألفاظها دقة الاختيار وموهبة الانتقاد ، ولا تشعر بالترابط والتناسق بين العبارات ولا تطرب لخلوها من تلك الموسيقى العذبة التى تنبه الشعور ، وتثير الحس وتلف الألفاظ فى سياج جميل من النغم .

وإذا كان الأمر كذلك فما نصيب حكم ابن عطاء الله من هذا الإبداع الفنى الذى يأتى من ناحية التعبير والتصوير ؟ .

هذا ما ستجيب عليه الصفحات التالية من هذه الدراسة .

أولا : ناحية التعبير فى الحكم

(ا) اللفظ والعبارة :

الكلمة أداة الأديب . واللبنة التى تشكل أدبه ، فإذا وفق فى انتقاء ألفاظه ، وهداه ذوقه إلى اختيارها الاختيار الأمثل جاء عمله الأدبى على على الصورة التى تتطلبها النماذج الأدبية الرفيعة - لأن الكلمة المختارة لا تقف عند حدود المعنى الذى وضعت له إذا أخذت مكانها اللائق فى العبارة - وإنما تتعداه إلى فيض من الإيحاءات والدلالات ، والمعنى الواحد تؤديه كثير من الألفاظ المترادفة بيد أنه من بين هذه الألفاظ ما يشع بهذا المعنى ، ويضفى عليه ظلالا ، ويثريه بالإيحاء وكأن هذا اللفظ ما وجد إلا ليكون جسداً روحه هذا المعنى ، يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات « وفى اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع وخلق لأن الكلمة ميتة ما دامت فى المعجم ، فإذا وصلها الفنان الخالق بأخواتها فى التركيب ووضعها فى موضعها الطبيعى من الجملة دبت فيها الحياة ، وسرت فيها الحرارة ، وظهر عليها اللون ، وتهيأ

لها البروز ، والكلمة فى الجملة كالقطعة فى الآلة ، إذا وضعت فى موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة وإلا ظلت جامدة، وللكلمات أرواح كما قال ، موباسان ، وأكثر القراء وإن شئت فقل أكثر الكتاب لا يطلبون منها غير المعانى ، فإذا استطعت أن تجد للكلمة التى لاغنى عنها ولا عوض منها ثم وضعتها فى الموضع الذى أعد لها وهندس عليها ونفخت فيها الروح التى تعيد لها الحياة وترسل عليها الضوء ضمنت الدقة والقوة ، والصدق والطبيعة والوضوح وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف ... وذلك فى الجهاد الفنى فوز غير قليل ، (١).

ولكن متى يقع الأديب على الكلمة التى تتخطى مجرد الدلالة على المعنى إلى الإيحاء ؟ .

إن ذلك يعود إلى أمور عديدة وعوامل كثيرة منها صدقه فى التعبير ، وانفعاله بالتجربة أو الموقف الذى يصوره ، ومعايشته المطمئنة لمعانيه وأفكاره ، حتى يختار لها ما يناسبها من التعبير .

ونأتى إلى مرحلة التطبيق فندلل على أن ابن عطاء الله ، كان من هؤلاء الأدباء الموهوبين فى مسألة التعرف على الكلمة والقدرة على اختيارها وانتقائها ووضعها فى مكانها المناسب من العبارة .

— يقول ابن عطاء الله فى حكمه « لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فإن ذلك مما يحيط من وجود قدرك » (٢).

فكلمة « لا تدهشك » جاءت لتصور الحالة التى يكون عليها ذلك الإنسان

---

(١) دفاع عن البلاغة — الأستاذ أحمد حسن الزيات — القاهرة ١٩٤٥ مطبعة الرسالة ص ٨٢-٨٣ .

(٢) غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية — ابن عباد النفرى — تحقيق د/ عبد الحليم محمود — القاهرة .

الذى طالما انتظر الفرج بعد الشدة والغنى بعد الفقر ، فإذا بنعم الله تغدق عليه فجأة ، فتراه لشدة فرحه ومفاجأته مذهولا كأن عقله قد فتر وغاب عنه بعض الشىء من شدة الفرحة - وقد جاء فى لسان العرب «الدهش ذهاب العقل من الذهل والوله ، وقيل من الفزع ونحوه ، (١) .

فهذه الكلمة من الألفاظ المصورة التى لم تقف فى مدلولها عند حدود المعنى ، والدليل على ذلك أنك لن تجد من بين الألفاظ المساوية لها فى المعنى من يسد مسدها فى هذه العبارة - كهذه الألفاظ « لا تصرفك - لا تشغلك - لا تحجبك - لا تمنعك » .

فكلمة « لا تدهشك » تتفوق على ما يرادفها فى المعنى من هذه الكلمات بتكوينها الصوتى « الدهش » فقوة الأصوات التى تحدثها هذه الحروف وبخاصة الدال والشين قد أحدثت قوة فى أدائها للمعنى المقصود .

- ومن مظاهر الدقة فى اختيار الألفاظ قوله « ومهما كنت إذا أعطيت بسطك العطاء ، وإذا منعت قبضك المنع فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك ، وعدم صدقك فى عبوديتك »(٢) .

فهو يريد أن يصور ذلك الإنسان الذى لا يستريح إلى ما قضاه الله وقدره بأنه ضعيف العقيدة متطفل على الإيمان ليس له قدم راسخة فيه بحيث تمنعه من اليأس والاعتراض على القضاء - وجاءت كلمة « طفوليتك » لتوحى بكل هذه المعانى - على أكمل وجه ولتصور حقيقة من كان هذا شأنه مع خالقه أتم تصوير ، والكلمة وإن كانت من التطفل إلا أنها توحى إلى جانب ذلك بأن من كان هذا دأبه فهو كالطفل يضحك إذا أعطى ويبكى إذا

---

(١) لسان العرب مادة « دهش » ط دار المعارف ١٤٤١ .

(٢) شرح ابن عجيبة لحكم ابن عطاء جـ ٢ ص ٢١٦ .

منع وربما كان فى المنع حفظا له إلا أنه لقلة عقله وعدم تمام إدراكه يأخذ الأمور بظواهرها ، ثم هى توحى أيضاً بأن هذا الإنسان لم يتمكن من قلبه فإذا ادعى الإيمان كان ادعاؤه مبنيا على وهن .

ومن الكلمات المختارة قوله « لو أشرق نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها »(١) والمعنى كما يقول « ابن عجيبة » لرأيت محاسن الدنيا الوهمية الفانية قد انكسف نور وجودها بظهور ظلمة فنائها ، ولو أشرق نور اليقين فى القلوب لرأيت الدنيا مكسوفة أنوارها ، بادية عوارها(٢) .

فكلمة « كسفة » صورت محاسن الدنيا وفتنتها وقد محيت من قلب المؤمن الذى أشرق واستضاء بنور الإيمان واليقين - بضوء الشمس وقد بدا عليها الكسوف فيحتجب ويختفى ، والكلمة توحى بقوة النور الإلهى فى تبديد ظلمة النفس وإجلاء صدأ القلب ، كما توحى بقوة الإدراك لحقائق الوجود وأسرار الكون لكل من أشرق قلبه بنور الإيمان واطمأن بنور اليقين .

ومن مظاهر الدقة فى اختيار اللفظ قوله ، إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية (٣) .

فكلمة « انحطاط » من الكلمات الموحية والمصورة ، فهى ذات جرس قوى نابع من تراكيبها الحرفى - فالطاء كررت مرتين وقد توسط بينهما حرف المد الألف وقد نتج عن ذلك قوة فى الجرس الصوتى يتناسب مع

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ١٩٨ .
(٢) نفسه ج ٢ ص ١٩٩ .
(٣) غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية ١/٥٤ .

تصوير السقوط والهوى الذى يصيب من لا يرضى عن الإرادة الإلهية وكلما زدنا فى مد ، الطاء ، الأولى خيل إلينا كأن إنسانا يهوى من قمة جبل شاهق فى قاع غاية فى العمق ، والكلمة بالإضافة إلى ذلك توحى بتجريد المعترض على قدر الله وقضائه من العقيدة الخالصة فى الإيمان .

ومن الألفاظ المختارة أيضا قوله . اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك ، (١).

فكلمة « انطماس » من الألفاظ المختارة تقول . انطمس الشيء وتطمس » إمحى ودرس .

وطموس البصر ذهاب نوره . وطموس القلب فساده . فالكلمة تصور هذا الفساد والجهل الذى ران على ذلك القلب ، فلم يعد يدرك المنهج الصحيح وظل غارقا فى الظلام ، واقعا فيما يبعد بينه وبين خالقه . وكان من الممكن أن ترد كلمة « انطماس » فى هذه الحكمة هكذا « طموس » إلا أن الصيغة الأولى تفوق الثانية بقوة الجرس والدلالات المثرية للمعنى - فكما تعرف - أنه كلما زاد المبنى زاد المعنى ، وكلمة « طموس » رباعية وانطماس سداسية هذا من ناحية عدد الحروف ، أما من ناحية التركيب الصوتى لصيغتين ، فكلمة « طموس » تسير فى تركيبها سيراً هادئا نتج عن ضم الطاء والميم يليها حرف المد « الواو » ، أما فى « انطماس » فالطاء كسرت ثم أعقبتها « ميم مفتوحة » يصعد الصوت بعدها بحرف المد « الألف » وهذا الصعود ، يساير صورة السقوط التى يتردى فيها من انطمست بصيرته ولا حرج عليك فى أن تزيد فى هذا المد شيئا لا يتاح لك لو كان المد واوا كما فى كلمة « طموس » وبذلك يتبين لنا أن مجرد الدقة فى إيثار الصيغة المناسبة للمعنى ، يثرى هذا المعنى ويملؤه بالدلالات والإيحاءات المتعددة .

---

(١) المرجع السابق ١ / ٦١ .

هذه بعض النماذج للكلمات المختارة فى حكم ابن عطاء الله السكندرى ، ولو ذهبنا نتتبعها لوجدنا الكثير والكثير .

وإذا كانت الدقة فى اختيار الألفاظ والقدرة على استخلاصها وانتقائها من أهم سمات الألفاظ عند ابن عطاء الله ، فإن هناك سمة أخرى أكسبتها أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة وتتمثل فى ظاهرة الاقتباس والاستمداد من ألفاظ القرآن الكريم .

فقد آثر الرجل أن يضم إلى ألفاظه تلك الألفاظ القرآنية كى تثرى حكمه بأعلى القيم الفنية التى يطلبها الأديب لعمله الأدبى ، وكأنه الصائغ يطعم الشكل الذى يؤثره ويستهويه بأنفس المعادن وأثمنها ، أو كأنه المصور حين يقدم على إلتقاط مشهد من المشاهد يأبى إلا أن يجعل مشهده وسط منظر جميل من مناظر الطبيعة الخلابة كحديقة تزدان بألوان الزهور وأجمل النباتات ، لذا تجد لمشهده سطوة على النفس وتأثيراً لم يكن له لو جاء بدون هذا الجمال بدون هذا الجمال المقتبس من الطبيعة .

على أنك إذا تتبعت حكم ابن عطاء الله التى شاركت ألفاظ القرآن فى بنيتها فستجد أن اللفظ القرآنى قد أثرى الحكمة وعمقها من ناحيتين :

أولا : ما أفاء به على المعنى من الوضوح والإشراق ومن القوة التى تطبعه فى الذهن وتشد إليه الأسماع وتثير إليه الانتباه ، ويأتى ذلك فى الغالب إذا جاءت الحكمة وقد ذيلت بألفاظ القرآن ، وهـــذه بعض الأمثلة التى توضح ذلك :

يقول : « يا قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته - كلا نمد

هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ، (١) .

فالحكمة يمكن أن تنتهى بنهاية كلامه بيد أنه آثر أن يزيل ألفاظه بقول الله تعالى — ونلاحظ أنه قد وفق فى اختيار الآية التى تناسب فكرته ومعناه وتقسيمه للمؤمنين — فهؤلاء الأولى فى الآية تعود على القوم الذين أقامهم الحق لخدمته ، وهؤلاء الثانية تعود على القوم الذى اختصهم الله بمحبته ثم جاء قول الله « وما كان عطاء ربك محظوراً » بمثابة البرهان والإقناع بالتسليم والرضا بكل عطاء إلهى يجود الله به على عبده .

وتجد مثل ذلك أيضا فى قوله : « من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية وكان الله على كل شىء مقتدرا » (٢) .

والمعنى أن فيض الرحمات الإلهية بالعبد لا يتوقف عند حد ، وأن رحمته وسعت كل شىء ومن مظاهر تلك الرحمة هداية العبد وتوجيهه إلى الطريق المستقيم ، وفى هذا دعوة للعباد أن يرتموا أمام أبواب الرجاء الإلهى وألا ييأسوا من فضله وعفوه ثم جاء التذييل ختاما لهذه المعانى ليثبتها ويؤيدها « وكان الله على كل شىء مقتدراً » فإذا كانت القدرة الإلهية لاحدود لها فعلى العبد ألا يستبعد شيئا من فضل ورحمة تناله من الله عز وجل .

ومن ذلك أيضا قوله « العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ، ويطلب ما لا بقاء له معه فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٣) .

---

(١) غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية ١/٢١٢ .
(٢) ابن عجيبه ٢/٣٣ .
(٣) غيث المواهب العلية ١/١٤٦ .

وقوله: « لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك ، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (١) .

وقوله : « خف من وجود إحسانه إليك ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجا لك سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » (٢) .

وقوله : ربما وجدت من المزيد فى الفاقات مالا تجده فى الصوم والصلاة ، الفاقات بسط المواهب ، إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين » (٣) .

وقوله : « ربما أفادك فى ليل القبض مالم تستفده فى إشراق نهار البسط « لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » (٤) .

فى الأمثلة السابقة حل التذييل محل البرهان وسوق الأدلة والشواهد على صحة المعنى وصدقه وثبوته ، وبذلك يتهيأ للحكمة أن تؤتى ثمارها فتستقر فى العقول ، وتستهوى القلوب ، بما تحويه من معان صحيحة وأفكار قوية مؤيدة بخير الأدلة وأقوى برهان عرفته البشرية .

وقد يقع التذييل فى الحكمة موقع التمثيل فيؤدى الغرض الذى يؤديه من توضيح المعانى الذهنية والنفسية وذلك بالتماس الصور المحسوسة المطابقة لهذه المعانى . ومثال ذلك قوله : « متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد عليك إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » (٥) .

---

(١) المرجع السابق ١/١٧١

(٢) المرجع السابق ١/١٨٩ .

(٣) ابن عجيبة ٢/٢٤٨

(٤) غيث المواهب العلية ١/٣٤٣

(٥) ابن عجيبة ٢/٤١ .

« الوارد كل ما يرد على القلب من المعانى من غير تعمـــل العبد »(١) ويقصد بالمعانى تلك الأنوار والإشراقات التى يمن الله بها على من أحبه واصطفاه من عباده بتلك المحبة فتراه دائم التعلق بعالم الغيب منصرفا عن عالم الحس إلى التأمل والتدبر والمناجاة والشوق والهيام ، وهذه الإشراقات تهدم ما سواها من الأفكار والوساوس التى تحجب العبد عن الوصول إلى الحقائق الإلهية .

وكما أن الملوك إذا دخـــلوا قرية أفسدوها ، فكذلك الإشراقات إذا دخلت القلب أفسدت فيه كل الحجب والأفكار وأزالت الصدأ الذى يحول بينه وبين الأنوار الإلهية ـ وتصوير الإشراقات الإلهية بالملوك يوحى بسلطان هذه الإشراقات على القلب ومدى قوة هذا السلطان فى طرد الوساوس وهدم الحجب ، كما يوحى بسعادة الإنسان الذى يحظى بهذه الأنوار وحفظه حفظا ربانيا .

ثانيا : يأتى الاقتباس لا على سبيل التدبيل ـ كما سبق ـ وإنما يأخذ موقعا أساسيا فى العبارة ويدخل ضمن تكوينها ، ومثال ذلك قوله « متى رزقك الطاعة والغنى به فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة »(٢) .

فالحكمة تهدف إلى إيقاظ الشعور بالنعمة فى حياة المؤمن الذى هداه الله إلى الإيمان فعرف الدنيا وزوالها وسعى للآخرة وبقائها ، وأدرك قدرة الخالق وعزته وضعف المخلوق وذلته ، وجاءت العبارة المقتبسة من القرآن لتثرى الحكمة بالقيم الفنية سواء من ناحية اللفظ أم من ناحية المعنى ـ فأما من جهة المعنى فقد دلت على أن العبد المؤمن وإن أحس بالنعم الظاهرة فإن

---

(١) اصطلاحات الصوفية ـ للقاشانى ـ القاهرة ١٩٨١ م الهيئة العامة للكتاب تحقيق د . كمال جعفر ص ٤٧ .

(٢) غيث المواهب العلية ١/١/٢٢١ .

هناك نعما باطنة لا تدركها معارفنا القاصرة ، ولا افهامنا المحدودة ، أرادها الله لعباده المؤمنين .

فأما الألفاظ فتجد مثلا الفعل « أسبغ » الذى يوحى بانغماس المؤمن فى النعم وكأن النعم هذه سائل متدفق صب عليه فناله من رأسه إلى أخمص قدميه ، فهى تحيطه من كل جانب وفى كل زمان ومكان ، كما أنه يوحى بأن هناك رعاية إلهية وعناية ربانية ترعى المؤمنين وتحفظهم وتذلل لهم كل الصعاب وتسهل عليهم كل عسير .

هذا بالإضافة إلى الطباق بين « ظاهرة وباطنة » وقد أفاد على المعنى بالوضوح والإتساع ، إذ كشف لنا أبعاد النعم وأن منها ما لا نعرفه وندركه ونعيه ، ونستطيع أن ندرك ماتجود به ألفاظ القرآن على الحكمة من جلال وجمال وبيان عن طريق الموازنة بين الحكم التى تضمنت فى بنائها شيئا من ألفاظ القرآن والحكم التى خلت من الاقتباس تماما ، وعلى سبيل المثال نأخذ قوله « ما أرادت همة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا وناديته هواتف الحقيقة الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا وناديتك حقائقها « إنما نحن فتنة فلا تكفر »(١) .

ونأخذ قوله « لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج »(٢) .

فالحكمة الأولى التى اشتملت على الإقتباس ظلت تسير فى ألفاظها سيرا طبيعيا كما هو الشأن فى الثانية ، إلى أن اختتمت بقول الله تعالى « إنما نحن فتنة فلا تكفر » ، وحينئذ أفاق الذهن وانتبه الحس وتيقظ الشعور لما فعله هذا التحذير بهذا السياق القرآنى العظيم ، ولو أنه عبر عنها عبر كى يأتى بالعبارة

---

(١) غيث المواهب العلية ١٠٦/١

(٢) المرجع نفسه ١٠٧/١

الى تسد مسد « إنما نحن فتنة فلا تكفر » لما استطاعت الحكمة أن تخلق هذا الجو من التأثير الذى اكتسبته من خلال الاستعانة باللفظ القرآنى، ونلاحظ أن تأثير اللفظ القرآنى فى هذه الحكمة لم يقتصر إثراؤه للمعنى فى محيط العبارة التى التحم بها والتى تتمثل فى قوله « ولا تبرجت ظواهر المكونات ... » بل امتد إلى العبارة الأولى من الحكمة حيث لفت الذهن إليها فحث المؤمن على الترقى فى العبادة وطلب المزيد من التجليات الإلهية، ورسم الطريق الذى يرقى به إلى هذا السلوك متمثلا فى الانصراف التام عن فتنة الدنيا وزينتها الزائفة - وهنا ندرك أن تأثير اللفظ القرآنى قد امتد ليشمل كل ألفاظ الحكمة وكأنه روائح زكية ما تلبث حين توضع فى ركن من أركان المكان إلا وتنتشر فى ثناياه وتملأ أجواءه بما يسعد النفس ويسرها وابن عطاء الله قد يستعين بالقرآن فى حكمه بهدف التدليل على صحة فكره، فيتخذ من أسلوب القرآن فى التعبير مفهوما يؤيد ماذهب إليه وذلك مثل قوله « أظهر كل شىء لأنه الباطن، وطوى وجود كل شىء لأنه الظاهر، أباح لك أن تنظر مافى المكونات وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات » قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ولم يقل انظروا السموات والأرض، فتح لك باب الإفهام قل انظروا ماذا فى السموات ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام »[1] .

فهو يتخذ من حرف الجر « فى » دليلا على أن النظر الذى تحث عليه الآية هو النظر من أجل الاعتبار والانعاظ والتوصل إلى معرفة القدرة الإلهية، وليس النظر المقصود أن تتأمل الأجرام فقط دون أن تربط بينها وبين خالقها ومبدعها .

أما بالنسبة للعبارة : فقد سيقت فى أسلوب قوى محكم بحيث لا تجد اضطرابا فى موضع منها ولا قلقا فى مكانها بل جميع ألفاظها تنساق نحو

---

(١) غيث المواهب العلية .

الغرض فى جرس موسيقى متساوق ـ ومثال ذلك قوله « إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى »(١) وقوله ـ « سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية فى إظهار العبودية »(٢) وقوله « لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك »(٣).

ويتحدث عن أهل الله فيقول « عباراتهم إما لفيضان وجد أو لقصد هداية مريد »(٤).

ومما يتصل بالعبارة فى حكم « ابن عطاء الله » ما نلاحظه من أنها كثيرا ما تتشكل فى جمل قصيرة سهلة ، وهذا يجعل الحكمة تؤدى الغرض الذى تهدف إليه بسهولة ويسر لأنها حينئذ « تتميز بسرعة الإلقاء وسرعة الفهم وتتابع المعنى ، وتلاحق الأثر النفسى ، فلا ينصرف السامع عن المتابعة ، لأن القصر لا يمكنه من الانتقال إلى شىء آخر فلا يشتغل الذهن بسواها »(٥) ومثال ذلك قوله عن حسن الثقة فى الله وفيما وعد به وتجلى الجمال الإلهى وإشراقه فى كل شىء يقول « طلبك منه اتهام له ، وطلبك له غيبة منك عنه ، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه ، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه »(٦)

وقوله « ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك »(٧)

---

(١) ١/٣٢٥ (٢) نفسه ١/٢٢٦

(٣) نفسه ١/٢٧٣ (٤) ابن عجيبة ٢/٣٤٢

(٥) فى الأدب الإسلامى الصوفى حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ـ د : على صبح

(٦) غيث المواهب العلية ١/١٠٩

(٧) نفسه ١/١١٧

وقوله « الأكوان ظاهرها غرة ، وباطنها عبرة ، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها ، والقلب تنظر إلى باطن عبرتها »(١) .

ومن الظواهر الفنية التي تتصل بالعبارة أيضا - أنه قد زواج كثيرا بين الإنشاء والخبر في الحكمة وذلك حتى لا يمل السامع أو يسأم من الأسلوب الخبري وحده أو الإنشائي وحده وليظل يقظ العقل متفتح الوجدان والشعور ومثال ذلك قوله « ربما استحى العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته ، فكيف لا يستحي أن يرفعها إلى خليقته »(٢) .

فقد انتقل من الخبر إلى الاستفهام ، وما جعل الاستفهام دورا بلاغيا في العبارة أنه لم يأت على الحقيقة وإنما أتى على سبيل التوبيخ أو الإنكار لحال ذلك الإنسان الذي يترك سؤال الخالق ويتجه إلى سؤال المخلوق .

وقوله « للناس يمدحونك بما يظنون فيك فكن أنت ذاما لنفسك بما تعلمه منها »(٣) .

فالانتقال من الخبر « الناس يمدحونك إلى الإنشاء « فكن أنت ..» قد نبه السامع ، وأثار في نفسه التشوق إلى معرفة العلاج الذي يواجه به النفس حين تغتر بمدح الناس وثنائهم وحين يريد نفي الحجاب عن الجمال الإلهي الذي يتجلى في كل المخلوقات يدير معانيه بادئا بالاستفهام ثم ينتقل إلى الخبر، والاستفهام أيضا ليس على سبيل الحقيقة وإنما قصد به النفي والاستبعاد - يقول « كيف يتصـــور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ، وكيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء - كيف يتصور

---

(١) نفسه ١/٢٣٤ (٢) ابن عجيبة ٢/٢٦٨

(٣) نفسه ٢/٢١١

أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي الظاهر قبل وجود كل شيء . كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء . كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس مع شيء . كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ، كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء » (١) .

ونجد أثر التنوع بارزاً في الانتقال من الخبر إلى الإنشاء في قوله « ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه » (٢) فقد بدأ الحكمة بالتحذير من مصاحبة ذلك الذي يظن أنه وصل إلى الكمال ، ودعا إلى مصادقة ذلك الذي يتهم نفسه دائما بالتقصير ويقرعها باللوم ، ثم جاء الاستفهام موضحا للمعنى ومؤكدا له — فأي علم لعالم يرضى عن نفسه ... ، والاستفهام هنا قصد به النفي .

° ° °

ونتنقل إلى الحديث عن موسيقا النثر الأدبي في حكم ابن عطاء الله ، ويجد المتتبع للحكم أن فيها بالإضافة إلى الموسيقا المتولدة عن المحسنات البديعية من سجع وازدواج وجناس نوعا آخر من الموسيقا ناتج عن ترتيب الكلام ترتيبا نفسيا يوافق اهتزاز المشاعر وهوجات الشعور ، بأن يعبر الأديب عن خواطر تطرد وتتدفق منسجمة في نسق خاص فكأن سلكا خافيا ينظمها نظم الدر ، وهذا ما يعرف بالموسيقا الخفية ، وآمارتها أن تستمع للأثر الأدبي يتلى عليك ومن ورائه أذنك المرهفة تصغي لنظم قد تماسك والتحم معنى ومبنى ، بمعنى أن القارىء لو سكت فجأة دون إتمام

---

(١) غيث المواهب العلية ١/١٠٠ .
(٢) غيث المواهب العلية ١/١٣٧

كلامه الأدبي لشعرت أن نشازاً حدث فانبثرت الموسيقا انبثاراً فاطما ، فإذا أتم الحديث لغايته فقد بلغ بك الطرب النفسي أقصاه »[1] .

ونذكر على سبيل المثال بعضا من حكمه التي تبرز من خلال ألفاظها وعباراتها تلك الموسيقا - الخفية - يقول « لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين . إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك »[2] وقوله « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يثب من هفواته »[3] ، وقوله : « لما علم الحق منك وجود الزلل لون لك الطاعات وعلم ما فيك من وجود الشره فجرها عليك في بعض الأوقات ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة فما كل مصل مقيم »[4] .

فالتعبير في هذه الحكم قد جاء في أسلوب فني رائع يمتاز بالدقة في ترتيب الألفاظ وتنسيق العبارات بحيث لو تقدمت جملة على جملة تغير المعنى واختل التنسيق الملموس بين العبارات .

وآية هذا الترتيب والتنسيق انتقاله من معنى إلى معنى في تدرج يصعد بالمعاني وفق ما يتصور الذهن ، وما يناسب الإحساس ، ففي قوله : « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته . » نلاحظ أن بدأ بالاستفهام على سبيل الاستبعاد والنفي لكل قلب شغلته الدنيا بزينتها وفتنتها أن تنزل

---

(١) البيان النبوي ص ١٩٧ .

(٢) ابن عجيبة ٢/٣٤٢ . (٣) غيث المواهب العلية ١/٩٣ .

(٤) نفسه ١/٢٩٣ .

عليه التجليات الإلهية والأنوار الربانية ، وتجيء الجملة الثانية لتجيب عن سؤال فرضته الجملة الأولى - ما سر امتلاء القلب بالدنيا واحتجابه عن الإشراقات الإلهية ؟ . وهكذا يتدرج فى معانيه من إشراق القلب إلى الترقى والصعود إلى الله ، ثم الدخول فى حضرته ، وتذوق الأسرار والجمال الإلهى .

هذا عن قلب المؤمن ، أما عن غيره فتجد هذا التدرج أيضا فى الانشغال بحب الدنيا ثم الرغبة الشديدة والشهوة الجامحة إليها ، ثم الغفلة التامة عن الدين والإيمان ثم انطماس القلب والبصيرة وانحجابه التام عن إدراك الأسرار وتذوق الجمال ، وبالإضافة إلى ذلك فإنك تلمس هذا التدرج فى هندسة العبارات وترتيب المعانى فى ابتداء الحكمة بالاستفهام « بكيف » وكان يمكن الاكتفاء بالعطف بالواو فى الجملة الثانية إلا أنه عطف « بأم » وهى تصور حالة الصعود المصاحبة للنفس وهى تتابع التنقل والتدرج من حال إلى حال لهذين الفريقين فريق الجنة وفريق السعير .

أما عن اللون الآخر من ألوان الموسيقا فيتمثل فى موسيقا السجع والازدواج والجناس والمقابلة والطباق وغير ذلك من المحسنات البديعية .

والسجع فى حكم ابن عطاء الله يحتل مكانة بارزة فقلما تجد حكمة خالية من السجع - إن لم يكن بين جميع الجمل وجد بين بعضها - وحين ننظر الأسلوب الذى جاء عليه السجع وما أحدثه من موسيقا ظاهرة بين الجمل ندرك تمام الإدراك أنه ليس من قبيل السجع المتكلف الذى يسير إليه الأديب فى غياب الطبع ، والحكمة قول موجز تحتاج إلى صياغة فنية مؤثرة تجذب الأسماع وتثير الانتباه ، والموسيقا من أهم عناصر التأثير فى الصياغة ، وحين يجيء السجع بوحى من الإلهام والفطرة تجده من أكثر ألوان البديع إيجادا للموسيقا وإطرابا للأذن وتوزيعا للنغم بين الجمل .

وقد جاء السجع فى الحكم على صورتين - الأولى - أن يجيء السجع بين

الفقرات من غير توازن وازدواج ، ومثال ذلك قوله « من علامة الاعتماد على العمل ، نقصان الرجاء عند وجود الزلل » (١) وقوله « ما من نفس تبديه إلا وله فيك قدر يمضيه » (٢) وقوله « أخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته قريبا » (٣) وقوله « العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره » (٤) ، فالسجع بين - العمل والزلل - تبديه ويمضيه - بشريتك وعبوديتك - مجيبا وقريبا اضطراره وقراره .

ونستطيع أن نتعرف على السجع بين الفقرات السابقة - هل جاء بداع من دواعى التكلف والتصنع .

أم كان مجيئه بحكم الطبع ؟ . . والمقياس فى ذلك أن ننظر إلى الكلمة الثانية والتى تكون مع الأولى السجع فإذا كان مجيئها لمجرد أن تسد مكانا فى الجملة وليس لها موقعا راسخا من حيث المعنى وآدائه آداءاً موحياً ومصوراً فالسجع حينئذ متكلف وليس له فى الأداء الفنى مكانة تذكر بل هو من عوامل الإزهاق لروح الأدب . أما حين نجد الكلمة وقد وسعت الناحيتين ناحية اللفظ وناحية المعنى ، وليس هناك من الألفاظ من يسد مسدها ويؤدى دورها ، فهذا هو السجع المطبوع الذى يثرى الأدب ، ولن تجد فيما ذكرته من أمثلة للحكم إلا هذا النوع من السجع « فى الحكمة الأولى جاء السجع بين العمل والزلل ، فإذا تأملنا فى كلمة الزلل ودورها فى المعنى لم نجد من الكلمات من تسد مسدها أو تؤدى دورها - لأنها توحى بأن الذنب حدث فى غفلة من المؤمن ولم يكن عن تعمد وإصرار سابق ، وهذا ما يفتح

---

(١) غيث المواهب العلية ١/٥١ (٢) نفسه ١/١١٠
(٣) نفسه ١/١٢٧ (٤) نفسه ١/٣٤٥

له باب الرجاء ولا يسد الطريق عليه إلى الله ، ومع هذه الإيحاءات والدلالات ذات الصلة القوية بمعنى الحكمة ، جاءت هذه الكلمة مسجوعة لتكمل دورها فى موسيقا الألفاظ التى تطبع الكلام بطابع جميل مؤثر يضفى عليه قبولا ويجعله قريباً من النفس .

وفى الحكمة الثانية جاء السجع بين كلمتى « تبديه ويمضيه » وكلمة « يمضيه » كلمة مختارة مثرية للمعنى العام للحكمة ، فهى توحى بقضاء الله النافذ الذى لا ترده قوة فى الأرض مهما كانت ، لأنه قضاء صادر عن الخالق القدير على كل شىء ، كما توحى بسرعة نفوذه إذ هى من المضى ، فلا تأخير ، ولا بطء فى هذا كله طمأنينة للعبد المؤمن وراحة له حيث يعتقد أن ماقدره الله عليه سوف يكون ولا راد لقضائه ، ومع هذه الإيحاءات المتعددة لكلمة يمضيه ، جاءت مسجوعة ، لتشارك فى الأداء الموسيقى للحكمة .

وفى الحكمة الرابعة جاء السجع بين كلمتى « اضطراره وقراره » وكلمة قراره من الكلمة التى تؤدى دوراً أصيلا فى العبارة ، فالحكمة تهدف إلى إثبات الصلة الدائمة بين العبد وربه فى كل لحظة وطرفة عين فهو مع ربه فى كل حركة من ليله ونهاره - وكلمة « قرار » من الكلمة المصورة لهذا المعنى العام للحكمة ، إذ هى توحى بالثبوت والاستقرار على هذه الحالة ، وعلى هذا لا يكون إيمان العبد بالإيمان الضعيف المذبذب ، وإنما هو إيمان ثابت جعله يستقر على حالة التعلق الكامل بالله رب العالمين والمراقبة الدائمة له ، وكل هذه المعانى أوحت بها كلمة « قراره » وبالإضافة إلى ذلك كله جاءت مسجوعة لتؤدى دوراً موسيقيا مع الكلمة الأولى « اضطراره » وبهذا يتأكد لنا أن ابن عطاء الله كان بعيدا عن التكلف فيما آثره من السجع ، وأن سجعه جاء بحكم الطبع وبوحى من الذوق .

أما عن الصورة الثانية للسجع فى حكم ابن عطاء الله فهى أن يأتى السجع

مع الازدواج بمعنى أن يراعى التوازن بين العبارتين المسجوعتين ، وعلى ذلك تتحقق فى العبارات أعلى درجات الموسيقا لأن الحكمة المنثورة حينئذ تصبح شبيهة بالشعر فتكتسب ما فيه من إيقاع الوزن .

وموسيقا القوافى «سئل» عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى ، لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ فأجاب : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر فالحفظ إليه أسرع والأذن لسماعة أنشط ، وهو أحق بالتقييد وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره »(١) .

فابن عبد الصمد ، يثبت أن المنثور كلما تزى بالثوب الشعرى كان فى ذلك حفظا له من النسيان والضياع ، حيث يسهل تعلقه بالسمع وثبوته فى القلب لما فيه من جمال فنى مؤثر .

وهذه بعض الأمثلة كما جاء من سجع مزدوج (معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا)(٢) . وقوله (الأكوان ظاهرها غرة ، وباعثها عبرة ، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها والقلب ينظر إلى باطن عبرتها)(٣) وقوله (كن بأوصاف ربوبيته متعلقا ، وبأوصاف عبوديتك متحققا)(٤) .

والذى يميز هذا اللون من السجع عن سابقه ، ظهور موسيقاه بصورة

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١٥٨ .
(٢) غيث المواهب العلية ١/٢٤٧
(٣) نفسه ١/٢٤٣ .
(٤) ابن عجيبة ٢/١٨٣ .

أقوى وأوقع فى النفس ، لأنه فى النوع الأول تشكو الموسيقى على اتحاد
أواخر الكلمتين فى الحروف ، أما هنا فيساند هذا الاتحاد الوزن السادس
فى جميع أجزاء العبارتين ، فتتحد موسيقا الوزن مع موسيقا القوافى ليتولد
من ذلك كله لوناً بجلجلا من ألوان الموسيقا .

أما عن المقابلة والطباق فقد كثر مجيئهما فى الحكم ، ومع كثرتهما فلن
تجد سوى المعنى هو الذى استدعاهما ولن تجد تعملا أو تكلفا فى استدعائهما .
وهذا النوع من المحسنات اللفظية لا يقض منه الناحية اللفظية فقط بل هو من
أكثر ألوان البديع إثراء للمعانى ويجىء ذلك عن طريق التضاد الذى يقيمه
بين المعانى بعضها البعض (والضد أقرب خطورا بالبال إذا ذكر ضده)(١)
فكما أن الفنان فى مجال الألوان والرسوم يستخدم هذا التضاد فتجده يضع
الأسمر فى مقابل الأبيض ليضفى كل منهما على مقابلة عوامل الظهور والوضوح ،
تجد ذلك أيضا فى مجال الألفاظ ومعانيها ، فحين يستخدم اللفظ أو الألفاظ
ثم تقرن بما يقابلها ، كما فى المقابلة والطباق تتجلى المعانى وتشرق فى أعلى
صورة من الوضوح والظهور بشرط أن يتجنب الأديب التكلف ويحذره ،
إذ لو سرى هذا الداء إلى الكلام لخفتت فنه كل عوامل الفن والأدب ،
وعاد عليه بالضر من حيث يظن جلة النفع .

وهذه بعض الأمثلة للمقابلة والطباق نذكرها جملة حتى يتاح للذوق أن
يجول فيها مجتمعة (حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعات
باطن خفى ومداواة ما يخفى صعب علاجه)(٢) .

(ماقل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب)(٣)

---

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب ـ أحمد بدوى ص ٤٧٧ .
(٢) ابن عجيبة ٢/٤
(٣) غيث المواهب العلية ١/١٥٤

وقوله (أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت فيه طامع)[1] وقوله : (تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك يمدك بعزه ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته)[2].

وقوله (لا صغيرة إذا قابلك عدله . ولا كبيرة إذا واجهك فضله)[3]

وقوله (العطاء من الخلق حرمان . والمنع من الله إحسان)[4] .

فالمقابلة فى الحكمة الأولى ، بين ظاهر جلى وباطن خفى ، وقد يقال إنه ليس ثمة فروق ظاهرة بين كلمتى ظاهر وجلى وكذلك بين كلمتى باطن وخفى ، وكان من الممكن أن يكتفى بكلمة ظاهر وباطن ، والجواب أن هاتين الكلمتين « جلى وخفى » لاغناء عنهما فى موقعهما حيث يحتلان ركنا أساسيا فى أداء المعنى المراد والذى تهدف إليه الحكمة ويسعى إليه الأديب . فكلمة (جلى) أوحت بشدة الظهور وتجليه وأنه ظهور غير مشوب بما يكدره ويجهد الناظر إليه ، ويجعله يمعن النظر ويردده ويكرره حتى يكتشف الشىء الذى ينظر إليه ، ولو أنه اكتفى بكلمة (ظاهر) لما اكتسب الظهور تلك الأوصاف المقوية لمعناه ، والموضحة له ، ويقال ذلك أيضا بالنسبة لكلمة (خفى) ، وبذلك يتبين أصالة هاتين الكلمتين وانتفاء التكلف فى استدعائهما .

ومن المحسنات البديعية (الجناس) وقد جاء بنوعيه التام والناقص ، ومن التام قوله (إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا)[5] ومن الناقص قوله (رب عمر اتسعت آماده ، وقلت أمداده ، ورب عمر قليلة آماده كثيرة أمداده)[6] . ويتحدث عن الصلاة فيقول (علم وجود الضعف

---

(١) نفسه ١٨٣/١
(٢) ابن عجيبة ١٣/٢ .
(٣) غيث المواهب العلية ١٦٦/١
(٤) نفسه ٢٣٨/١ .
(٥) غيث المواهب العلية ١٦٨/١
(٦) ابن عجيبة ٧٧/٢ .

منك فقلل أعدادها ، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر إمدادها) (١).

والموسيقا فى الجناس مصدرها اتحاد الكلمتين فى الحروف أو معظمها وهذا يجعل التردد الصوتى متحداً بينهما فإذا ألقى على السمع الكلمة الثانية من الكلمتين فى الجناس وما زال التردد الصوتى للأول عالقاً به ، حدثت مماثلة فى الأداء الصوتى ومن هنا يقوى الجرس الموسيقى بين العبارتين .

ومن المحسنات البديعية فى حكم ابن عطاء الله السكندرى ، رد العجز على الصدر ، ومثاله : (إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى ، فلا تستعزن بعز لا يفنى) (٢).

وقوله (ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً) (٣) .

ثانيا : الصور والأخيلة

يتوقف نجاح الأديب على حسن اختياره للصور التى تجلو معانيه ، وتغمرها بالوضوح والإشراق ، فالصورة المنسقة البارعة هى التى تزيد المعانى جمالا به يتقرب البعيد ، ويجلى الغامض ، فينتقل الشعور إلى النفس حيا قوياً ممتازاً . .

والصورة فى حكم (ابن عطاء الله) لا يتوقف اختيارها عند حدود التشابه بين الطرفين وإنما تتعدى ذلك إلى إثراء المعنى وتجليته واتساعه وعمقه ، فمثلا

---

(١) غيث المواهب العلية ١/٢٩٨

(٢) نفسه ١/٢٣٦ .

(٣) ابن عجيبة ٢/٣٨

يصور حرص المؤمن الزاهد على تجنب الرياء والظهور ، ويسوق ذلك فى إحدى حكمه فيقول (ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه) .

فالمؤمن إذا أراد لعمله أن يثمر ويقربه من الله عزوجل فعليه أن يتجنب حب الظهور وأن يخلص عمله من كل شوائب الرياء ويجعله خالصا لوجه الله مثل عمله فى ذلك كمثل البذرة يحرص زارعها على دفنها فى التراب فإن تركها ظاهرة فربما تنبت وتخضر بيد أنها لا تصل إلى مرحلة الإثمار الصحيح والكامل كما يكون منها إذا دفنت دفنا جيدا .

وفى تشبيه الأعمال والإخلاص فيها - بالبذرة والإثمار - إيحاء بأنه على المؤمن إذا أراد لعمله أن يكون خالصاً لوجه الله أن يتعهد نفسه بالمراقبة والمحاسبة ، وأن يكون فى ذلك كالزارع يتعهد زرعه بالماء والعناية ، وعلى قدر هذا التعهد تكون نتيجة الإثمار .

ومن الصور المثرية للمعنى والموضحة له قوله (لا تزكين واردا لا تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الإمطار ، وإنما المراد منها وجود الإثمار).

فأى معنى يرد على القلب فعلى المؤمن أن ينظر إلى المنفعة والثمرة التى تعود منه على العقيدة، فإن كان منه فائدة فلينمه ويزكيه، وإن كان غير ذلك فانصراف القلب عنه أولى ، هذا المعنى الذهنى صوره (ابن عطاء الله) بالسحابة الممطرة وأن الهدف من إمطارها الإثمار ، فإذا وقع المطر بعيدا عن مواطن النفع والاستفادة ، فأى فائدة تكون له ؟ ! ومن التناسق الفنى بين أجزاء الصورة السابقة ، إيثاره للمطر كعنصر من عناصر الصورة - يقابله - الوارد - يرد على القلب .

فالمطر من الله عز وجل ولا قدرة للعباد على التدخل فى إيجاده أو

توجيهه ، وكذلك الوارد يرد على القلب من غير تعمل أو تدخل من العبد ، والمطر قد يصيب أرضاً صماء لا تستفيد منه ، وكذلك الوارد قد يصادف قلباً لا يستوعبه ولا يستفيد منه .

ومن الصور المختارة أيضاً قوله : (لا ترحلن من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذى ارتحل إليه هو الذى ارتحل ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون)[1] .

فهو يتحدث عن الرحلة الحقيقية للنفس المؤمنة ، وأنها ليست فى كثرة التنقل من مكان إلى آخر ، وإنما هى فى التعلق الكامل بالله الخالق والالتفات الخالص إليه . تاركة التنبه إلى فتنة الدنيا وزينتها . ويصور ذلك المؤمن الذى ترك الرحلة إلى الله وانغمس فى حب الدنيا وتعلق بها ، بالحمار الذى يجر الرحى . فهو يدور فى مكان واحد كلما ارتحل عن بعضه عاد إليه ، وإيثاره للحمار فى هذه الصورة . مع أنه كان من الممكن أن يجعل مكانه كثيرا من الحيوانات التى تجر الرحى هى الأخرى ، كالفرس ، والجمل ، وغيرهما ، لأن الحمار - هو الحيوان الذى يرمز إلى الغباء وإهمال العقل وعدم الاستفادة مما يدور حوله . ولذلك نجد القرآن الكريم قد قصد إلى سلب اليهود ميزة التفكير والتأمل والاستفادة فشبههم بالحمار فى قول الله عز وجل (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين)[2] .

---

(١) غيث المواهب العلية ١/١٤٧ .

(٢) الآية رقم (٥) من سورة الجمعة .

أهم المصادر والمراجع

١ - أسس النقد الأدبي عند العرب : د/ أحمد بدوى ، القاهرة . بدون تاريخ . دار نهضة مصر .

٢ - اصطلاحات الصوفية : القاشانى . القاهرة ١٩٨١م الهيئة العامة للكتاب .

٣ - إيقاظ الهمم فى شرح الحكم: ابن عجيبة . القاهرة ١٩٠٦م ١٣٢٤هـ ج٢ .

٤ - البيان والتبيين : للجاحظ ، القاهرة ١٩٤٨ م ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٥ - البيان النبوى : د/ محمد رجب البيومى . القاهرة ١٩٨٠ م ، دار الفكر العربى .

٦ - دفاع عن البلاغة : الأستاذ أحمد حسن الزيات .

٧ - الشعر العربى والذوق المعاصر : د/ محمد كامل حسين ، بدون تاريخ .

٨ - غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية: ابن عباد الرندى: تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، د/ محمود بن الشريف ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، الجزء الأول .

٩ - فى الأدب الإسلامى الصوفى : د/ على صبح ، القاهرة ١٩٧٧ م ، دار الأنصار .

١٠ - فيض الخاطر : الأستاذ أحمد أمين .

Scanned with OKEN Scanner